(٣)

الإنسان : هذا الكائن الفريد

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾

(قرآن كريم ، سورة الاسراء ، الآية/٧٠)

إن اهتمام بني الإنسان بالتفكير في هويتهم ومعرفة خصائص طبيعتهم ومكانهم في هذا الكون يشكل ولا شك صفة إنسانية فريدة . وفي هذا الشأن، قرأنا للأنثروبولوجي "بيتر فارب" Peter Farb في كتابه (بنو الإنسان) أنه "إذا أردنا تعريف بني الإنسان احتجنا إلى أن نأخذ بعين الاعتبار عدداً من الخصائص . فبنو الإنسان يرسلون سفن فضاء إلى القمر والكواكب ، ويخترعون العديد من الأنظمة الاجتماعية والسياسية المعقدة ، وينشئون مؤسسات ويعبدون آلهة ، ويتحدثون عن علم في مواضيع لا حصر لها . ومع ذلك، لا يمنع أي إنجاز من هذه الإنجازات من تصنيف بني الإنسان على أنهم من الحيوان ؛ غير أن هذا لا يعني أن بني الإنسان ليسوا سوى حيوانات، فهم في واقع الأمر ينتمون لنوع خاص مميز جداً من الحيوان"(١) . فالإنسان في نظر "بيتر فارب" لا يختلف كثيراً في بنية جسمه عن الحيوانات القريبة الشبه به ، ولكنه يختلف اختلافاً هائلاً عنها في الفكر وطُرز سلوكه .

ولنضع الآن هذا الرأي جانباً ، ونقدم فيما يلي وجهة نظر أخرى من الفلسفة . ففي كتاب بعنوان "الفلسفة الحديثة" لأستاذ الفلسفة البريطاني "روجر سكروتن" Roger Skroti n ، نجده يقول في معرض التفرقة بين الإنسان والحيوان أنه قد يصعب في بعض الأحيان تعريف العقلانية، إلا أننا نرى فيها السمة الرئيسة التي ينفرد بها الإنسان . وبالرغم من وجود أفراد لا يتسم سلوكهم بالعقلانية ، إلا أن سكروتين يتفق مع "أرسطو" في كون حياتنا العقلية وتداعياتها هي أساس تَميُّزْ الإنسان عن الحيوان . ومع بدايات عصر العقل في أوائل القرن السابع عشر شاع إطلاق صفة العقلانية على الإنسان ، وأصبح يشار إليه بـ "الإنسان العاقل "Homo Sapien" ، بمعنى الماهر أو الحكيم . ويستطرد "سكروتين" الحديث عن تفرد الإنسان بصفة العقلانية ، فيقول ان الحيوانات مثلاً لديها رغبات ولاشك ، ولكنها لا تستطيع اختيار وسائل تحقيق تلك الرغبات . والحيوانات وإن كانت لديها أيضاً قدرة على الإدراك إلا أنها عاجزة عن تكوين وعي ذاتي ، أو التفكير في ماضيها وحاضرها مثلاً . هذا علاوة على أن الحيوانات ينقصها القدرة على التخيل أو الحس الجمالي للأشياء .

وعن مسألة الوعي بالذات، نجد أن حتى أكثر الفلاسفة الماديين يقرون بوجود هذه الظاهرة المميزة ؛ فالإنسان في نظرهم هو ذات واقعية ، فردية ، يعيش مأساة التفاهم والتكيف مع الواقع ومع المجتمع (٢) . من هذا الصعيد يُدرك الإنسان تبعية الأفعال التي يقوم بها ومسئوليته عنها ، الأمر الذي جعل من الإنسان كائنا ذا حس أخلاقي ، قادر على تنظيم حياته وسلوكه وفق مبادئ ومعايير وقيم معينة ، وأن لديه أيضاً إرادة التغير عن وعي وبصيرة . فالإنسان باكتشافه لقوته الخاصة وفعاليته وقدرته على تغيير الأشياء قد دخل التاريخ ، كما يشير بذلك أستاذ الفلسفة اللبناني محمد عبد الرحمن مرحبا ، وحول ذلك كتب يقول :

"إن هذا التوكيد للذات خارج حدود الحياة المادية له اليد الطُولي على مولد التاريخ . فالعاهل العظيم إذ يُمني النفس بمجدٍ يذكره له الناس بعد موته يروي مآثره ليحفظها في بطون التاريخ ، بل يأمر بنقشها في المعابد والهياكل كي لا تصل إليها عوادي الزمن . فلا شيء يخلد الذات مثل هذا التوكيد للذات بالذات ، ولا شيء أكثر تعبيراً عن هذه النزعة في الإنسان التاريخي من أن ينقش توقيعه على البرونز أو الحجر أو الرخام ليتميز عن سائر الناس ويثبت للملأ أنه كان أوحد زمانه وفريد عصره وأوانه . وليس أدل على هذا النزعة في زماننا من السائح الذي يسجل اسمه في الأمكنة التاريخية التي يستهويه جمالها تخليداً لذكرى مروره عليها . فهذه الكتابات المتواضعة وتلك النقوش الملكية تستوي في التعبير عن رغبة الذات في توكيد ذاتها ابتغاء الخلود . وعلى كل حال فالإنسان وقد أصبح شاعراً بذاته يود دائماً نقش اسمه على جدار التاريخ" (٣) .

ومن الناحية التشريحية نجد في داخل دماغ الإنسان أعقد مُكونة عضوية وأخطر جهاز توجيه ومراقبة في التركيبة الجسدية للإنسان . ذلك هو المخ الذي يتألف من مائة مليون خلية عصبية وهو عدد يماثل تقريبا عدد النجوم الموجودة في فلك المجّرة التي يوجد بها كوكبنا الأرضي ، والذي بعمله (أي المخ) متلازماً مع دقات القلب ينبض الجسد بالحياة ، والذي بإشارة منه – كما يقول الطبيب "هيبوقراط" Hippocrates – ينفعل الإنسان أو يهدأ ، وعن طريقه أيضاً نتحكم في أقوالنا وأفعالنا ، يشملنا الحزن والكآبة أحياناً ، أو يغمرنا السرور والبهجة أحياناً أخرى (٤) . ولكن ماذا عن العقل (٥)؟! فالجراح يستطيع أن يشج الدماغ ليجرى عملية ما بالمخ فيجده كامناً أمامه ، كما يسهل عليه رؤيته، ولكنه لا يرى ذلك الشيء الذي يسمى بالعقل حتى ولو بحث عنه في خلايا المخ أو في قاع الدماغ . فالعقل ما هو إلا قدرة لدى الإنسان وخاصية فريدة منحها **اللّه** إياه كقوة تجريدية يدرك بها ماهيات الأشياء أي كنهها لا ظاهرها فحسب ، وأن يتفهم من خلاله العلاقات بين الماديات

والموجودات غير المادية . وبواسطته أيضاً يستطيع أن يدرك معانٍ وسلوكيات ، وأن يفرق بين الرذيلة والفضيلة ، أو العدل والظلم ، أو الحق والباطل .

فالعقل إذن ملكة الاستدلال والاستنتاج الصحيح ، ووسيلة عرض الإنسان لأفكاره بطريقة منطقية ، كما يُضفي عليها عادة شكلاً من المضامين الحسية . "وهذا العقل الإنساني ذو طبيعة مغايرة تماماً عن العقل عند الحيوان الذي يتصف بأنه نوعي يبرز في السلوك الغريزي بينما هو عند الإنسان فردي ، يوفر لكل واحد -- على حده – قدرة الإبداع الأصيل . ينتج عن ذلك أن الإنسان هو شخص مستقل حائز على قيمة لا يُستعاض عنها . ومع التأكيد على أهمية الوجود الفردي لا يجوز إغفال ما للعنصر الاجتماعي والفني أيضاً من دور في إيقاظ العقل الكامن في الفرد ودفعه إلى السير في مجالات الإبداع اللامحدودة" (٦) .

وعن العلاقة بين العقل والمخ ، تؤكد أستاذة الفلسفة باسمة كيال في كتابها "أصل الإنسان وسر الوجود" ما يلي : "ليس هناك أي اتصال مادي بين العقل والمخ ، لأن العقل مرتبط بالروح التي هي مصدر كل ذاكرة وعاطفة وكل حياة . فالجسد المادي إذن يظل خاضعاً للعقل يتصرف به كيفما يشاء عن طريق المخ ، وإذا كنا في ضوء هذه الآراء قد تلمسنا مدى الصلة بين العقل والمخ ، وتأكدنا بأن العقل هو مصدر للمخ ، لا بد لنا من التفتيش عن ماهية هذا المصدر ، فقد نكشف بدون أية مكابرة عن استقلال الوعي الإنساني عن الجسد المادي في شتى صور الإدراك التي تصل إلينا عن طريق حواسنا الخمس ، أو بالأحرى استقلال الشعور عن الحواس المادية ، والوعي عن المخ ولو في ظروف نادرة . فالعقل قد يجوز أن نعتبره مصدراً للمخ ، ولكن من غير الجائز أن نعتبر المخ مصدراً للعقل ، لأن العقل في اعتقادنا هو

المصدر الفعال لكافة القوى والانفعالات الجسدية ، كما تكون البذرة على سبيل المثال مصدراً للنبتة أو الشجرة" (٧) .

وعلى أية حال ، فإذا كان العقل سمة رئيسية ينفرد بها الإنسان ، فإن النطق يشكل أيضاً خاصية أخرى يتميز بها الإنسان عن الحيوان . ويتفق الفلاسفةً على انه لكون الحيوانات عاجزة عن النطق أو الكلام، فإن حياتها غالباً ما تخلو من الأفكار والأفعال التي تعتمد كلية على اللغة للتعبير عنها سواء بالكلمة أو الرمز . فبالكلمة صار الإنسان إنساناً ، ولولا الكلمة ما كان للإنسان دين وما كان له تاريخ أو حضارة . فبالرموز يُضفي الإنسان معاني اصطلاحية على الأشياء والأفكار. وكما يذكر الفيلسوف الفرنسي "ميشيل فوكو" في كتابه "الكلمات والأشياء" أن اللغة تُمكن الإنسان من أن يُكوِّن لنفسه عالماً رمزياً كاملاً يتصل بماضيه ، وبعلاقته مع الأشياء ومع الآخر . وانطلاقاً من هذا العالم الرمزي يستطيع الإنسان بناء المعرفة . وفي حقيقة الأمر ، فإن التفكير واللغة والمجتمع يُكونون في وجود الإنسان ثالوثاً لا ينفصل . فالاستعانة باللغة ضرورية لنمو التفكير المنطقي وزيادة القدرة على التجريد ، كما أن التفكير بالمفاهيم يبدو ثمرة إكمال اللغة ، وكل ذلك مرهون بالاتصال الاجتماعي . وسواء كانت اللغة منطوقة أم مُدوَنة ، فإنها تضمن استمرار الاختيارات السالفة في الذاكرة . فبواسطتها يُخزن الإنسان المعارف المكتسبة ويتمكن من نقلها إلى الأبناء والأحفاد ، ويُؤمِنْ عامل وراثة العقل النوعي ، ويسهل فرص الإبداع الفردي (٨) .

وبالرغم من هذه التفرقة الواضحة بين الإنسان والحيوان في مجالي التفكير واللغة إلا أن هناك من العلماء من يعتقد أن الهوة بينهما ليست بالاتساع الذي ساد

الفكر لفترة طويلة . يذكر هؤلاء أن بعض الخصائص التي يتفرد الإنسان بها مثل التخاطب أو حتى المزاح قد نجدها لدى بعض الحيوانات. فالقردة العليا مثلاً مغرمة باللعب، وكثيراً ما تضحك بل وتفرج أحياناً عن أساريرها بالقهقهة . ونجد أيضا أنه لدى الدرافيل إشارات وإيماءات كما يصدر عنها أصوات تشكل في مجموعها وسيلة اتصال أو لغة للتخاطب بين أفرادها . ومع ذلك فالسؤال الذي لا يزال مطروحاً هو مدى إمكانية تدريب بعض أنواع الحيوانات لترقي إلى الدرجة التي يمكن لها أن تشارك الإنسان في خاصية اللغة .

وحتى مع التدريب ، فهل يمكن للحيوانات أن تتكلم ؟! يفيدنا الباحث "جيمس ترافِل" James Trafil في كتابه الصادر عام ١٩٩٧ بعنوان هل نحن "متفردون"؟ "Are we Unique" أنه منذ أربعينيات القرن العشرين حتى اليوم تُجرى المحاولات من قبل علماء النفس خاصة لتدريب الشمبانزي على الكلام . ويشير هذا الباحث إلى أن واحدة من مشاهير المحاولات الأولية في هذا الشأن هي قصة "فيكي" Viki . تحكي هذه القصة أن مجموعة من القردة الشمبانزي قد تبنى تربيتها منذ الصغر عائلتان أمريكيتان مع أولادهما في المنزل بغية تحصيل وتعلم اللغة . ولم تنجح التجربة إلا مع القردة "فيكي" التي استطاعت بعد ثلاث سنوات أن تنطق كلمة "بابا" ، وأن تهمس بلفظة كوب عندما تطلب شربة ماء . يشير الباحث أيضاً إلى حالة أخرى حديثة ، وهي حالة القرد "كانزي" Kanzi الذي تبناه مركز بحوث اللغة في أطلنطا ، بالولايات المتحدة الأمريكية ، عام ١٩٨٠ . فقد استطاع كانزي بعد تجارب مريرة أن يؤدي أعمالاً معينة بناء على توجيهات أو مؤشرات خاصة، إلا أنه لم يبرز فهمه إلا لجمل قصيرة جداً (من كلمتين أو ثلاث فقط) ، الأمر الذي يجعل من اللغة بالمعنى الذي نفهمه من كونها كلمات وجمل وقواعد ورموز وفهم

وتعبير خاصية إنسانية تفردت بها التركيبة التشريحية للفم والفكين ، وبعض الأنسجة العصبية في اللحاء المخي للإنسان (٩) ، الأمر الذي جعل الأنثروبولوجي الفرنسي "كلود ليفي – ستروس" يرى في اللغة المنطوقة ، ولما لها من وظيفة رمزية ، الأساس الذي انتقل به الإنسان من الطبيعة إلي المجتمع .

وأياً كان الأمر، فإذا كان هناك من خصائص مؤكدة يشترك فيها الحيوان والإنسان، فهما الحياة والموت. ومن الطريف أن نرى أنه بينما يخشى الإنسان الموت لا يأبه به الحيوان ولا يدركه ، لأنه ليس على وعي به أصلاً أو على علم بحتمية حدوثه (١٠) . ومع تشابه الحيوان مع الإنسان في ضرورة الحياة وحتمية الموت نجد أن الإنسان لا يؤهل لمراس قدراته السامية العاقلة إلا إذا عاش في وسط مجتمع وأحدث لنفسه تنظيماً يكفل له الحياة . وإذا كان الحيوان يتواجد ويتحرك مع أقرانه في تجمعات ، فان الإنسان اجتماعي بطبعه ويعيش فرداً في مجتمع ، والفرق شاسع بين التجمعات الحيوانية والمجتمعات الإنسانية . وإذا كان الحيوان يعيش حياته بتلقائية غريزية ، فإن على الإنسان أن ينظم حياته ويخطط لها ويبتدع نظمها ، والكيفية التي يعبر بها عن هويته ويحقق بها رسالته في هذه الدنيا. وبمعنى آخر لابد أن يكون لمجتمعه هذا ثقافة ، أي أسلوب تنظيمي متكامل للحياة . ولذا ارتبطت الثقافة بوجود المجتمع ارتباطاً وثيقاً إلى حد اعتبارهما بمثابة وجهين لعملة واحدة، ولذا فهما يشكلان (أي المجتمع والثقافة) بطبيعة الحال ضروريتين أساسيتين للحياة الإنسانية .

وتجدر الإشارة إلى أن استخدامنا لمصطلح الثقافة ، وهو من المصطلحات الأنثروبولوجية الرئيسة ، لا يقتصر فقط على عناصر الإبداع الفني أو أشكال

الإنتاج الأدبي لدى أفراد شعب معين أو الاهتمام خاصة بمظاهر رقي سلوكياته، وإنما الثقافة – في المنظور الأنثروبولوجي – هي أسلوب حياة هذا الشعب في جملته متضمناً ما لديه من سمات روحية وعناصر مادية ، وما ينتجه من أدوات وأفكار وما يستهلكه من أشياء ومواد ، وما لديه كذلك من فكر ، وما يقوم به من عمل . فالثقافة هي – في حقيقة الأمر – الوسط الذي يعيش فيه الفرد ويتفاعل معه ، يُؤثر فيه ويتأثر به . وكما أن لكل شعب ، أي شعب ، ثقافته ، فإنه لكل ثقافة ، أية ثقافة، تُراثها . وهذا التراث هو بمثابة الجذور الضاربة في أعماق تربة مُعطاة نستمد منها شجرة الثقافة مُقومات كيانها وروح حياتها – إن صح هذا التعبير . وهذا التراث لا يقتصر مضمونه على أدبيات أهل الفكر أو أهل الفقه فحسب، وإنما يتضمن أيضاً التراث الشعبي بصنوفه المتعددة العاكسة حقاً لضمير الشعب وفكره، علاوة على نظرته للذات والآخر . إضافة لذلك، فليس للتراث بداية ونهاية وإنما هو متصل بين الحاضر والماضي القريب على حدٍ سواء .

نعود الآن إلى رأي الأنثروبولوجي "بيتر فارب" ، ولنركز أساساً حول مسألة البنية الجسدية للإنسان التي رأى فيها فارب تشابهاً مع الحيوان في حين أن الاختلاف الجوهري يكمن في السلوكيات على حد قوله . وعندما نتحدث عن جسد الإنسان نكون قد انتقلنا إلي المجال الطبيعي من للدراسات الأنثروبولوجية ، كما نجد أنفسنا في حاجة للاستعانة بمعطيات علمي الأحياء والتشريح من مفاهيم وأدوات قياسية وتحليلية . فهذا الإنسان ، ذلك الكائن الفريد في تكوينه ، يحتاج إلى دراسة وتأمل معاً . فهو – في رأينا – منظومة منسقة ومتكاملة لصفات طبيعية وتداعيات حضارية . ولقد تسنى لنا في السنوات الماضية الإطلاع على بعض الكتب ذات الصلة بالنواحي الطبيعية والاجتماعية التي حررها عدد من الأطباء والجراحين

الأمريكيين ، وفي هذه الكتب قرأنا تسجيلهم لإجلال وعظمة هذا الخلق البديع الذي هو الإنسان ، كما لمسنا إحساسهم بإيمان قاطع ، وأن هذا الإنسان ليس نتاج رحلة تطورية طويلة عبر الزمان بدأت بنشأة حيوانية دنيا ثم تطورت عبر مراحل أخرى عليا ارتقاءً إلى المرحلة البشرية ، كما يرى أصحاب النظرية الحيوية التطورية التي سادت في الفكر الأوروبي إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وإنما هو – في حقيقة الآمر – نموذج فريد بين الكائنات الحية وخلق مُتميز عليها ومتفرد عنها جميعاً .

وما دمنا قد وصلنا هنا إلى مقولة الإيمان بعظمة الخالق وجلال خلقه في شخص هذا الإنسان ، علينا إذن أن نتلمس آية الخلق في أجسادنا وهذا أمر سنتناوله في المقال التالي . وجب علينا أيضاً أن نقف كذلك على أساسيات المفهوم القرآني للإنسان . وفى هذا الشأن أوضحت لنا بنت الشاطئ أن الإنسان ليس مُناط إنسانيته مجرد كونه منتمياً إلي فصيلة الإنس (مقابل فصيلة الجن) ، كما أنه ليس مجرد بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، وإنما الإنسانية فيه ارتقاء إلي الدرجة التي تؤهله للخلافة في الأرض والانتشار واحتمال تبعات التكليف . لذلك اختصه اللّه بالعلم والبيان والعقل والتميز . ولعلنا لا ننسى أيضاً أن كلمة الإنسية تحمل دلالة عدم التوحش ، لأن خفاء الجن هو قرين التوحش ، الأمر الذي يجعل الإنسية خاصية تميز جنسنا عن أجناس أخرى خفية مجهولة لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا . ولذا جاء لفظ الإنسان – في رأي الكاتبة بنت الشاطئ – للدلالة اللغوية الأصيلة لتشير إلى نقيض التوحش (١١) . ومن جانبنا نرى الإنسانية مفهوماً مجرداً يشير – ضمن أشياء أخرى كثيرة – إلى النبل ومكارم الأخلاق ، بالإضافة إلى رقي السلوك والسمو بالروحانيات والعلوّ بقيم الرحمة والعدل والرعاية . فالإنسانية هي إذن نقيضُ

الحيوانية أما البشرية فهي واقع الناس جميعهم ، وصفات ذواتهم في كل زمان ومكان ، من حيث تباين الأشكال ، وتعدد الألسنة واختلاف الأهواء ، وتنوع نظم الحياة وتطورها .

استطراداً لهذا المفهوم القرآني للإنسان ، يوضح أستاذ الشريعة الإسلامية محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، إن هوية الإنسان تحمل في طياتها حقيقتين اثنتين وبينهما - في الظاهر - ما يشبه التناقض أو التشاكس – على حد تعبيره . "فالإنسان في حقيقة أمره مخلوق تافه، أصله الأول من تراب ، وسلالته من ماء مهين ، والشأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر ، فلا يعلم – بعد علم – شيئاً . ويغلب عليه ، مع ذلك ، ان يشمخ بأنفه ويستكبر على الرغم من ذله ، وأن يخاصم ويعاند، ويحاول ويكابر" (١٢) . أما الجانب الآخر من الهوية الإنسانية في القرآن الكريم – والكلام لا يزال للبوطي – فهي "أن الإنسان هو ذلك المخلوق المُكرم على سائر المخلوقات الأخرى، وأنه ذاك الذي استأهل أن يكلف **اللّه** الملائكة بالسجود له، متمثلاً في شكل أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، وأنه الذي شرفه **اللّه** بالخلافة على هذه الأرض، عندما شاء أن يجعله بالمهمة التي حمله إياها مظهراً لعدالة **اللّه** تعالى وحكمه ، وأنه (الكائن) الوحيد الذي جهزه **اللّه** بالعقل والتفكير والقدرة على إدارة الأمور" (١٣) .

والحكمة في هذين الجانبين في هوية الإنسان ، كما يستنبطها البوطي ، هي "أنه إذا لم ينتبه الإنسان في يقظة عقليه وشعور وجداني صحيح إلي مجموع هويته وذاتيته الإنسانية الجامعة لهذين الجانبين فهو إما أن يتطرف إلي سبيل التكبر والطغيان على الآخرين ، إن سنحت له الظروف وأمكنته الفرصة ، وإما إلي سيل

من المهانة والخضوع ، إن خانتــه الظروف وخيبتــه الفرص والآمال . ومن هذيــن السبيلين يتحقق ما يسميــه البيان القرآني الإفساد في الأرض الـــذي يظــل القــرآن يكرر الحديث عنه ، ويكثر التحذير منه ، ويلفت نظــر الإنسان إلى مغبات التورط في أسبابه ، وينبـــه إلى الرزايا والمصائب التي لا بد أن يتحملها على أعقابه" (١٤) .

ويستمر الحـــوار ، والتضــاد أو التوافــق ، حــول النظــرة إلـــي الإنســان واكتشاف هويته وتفرد خصائصه عن باقي الكائنات ، حتى يصل العلم مع الســـنوات الأخيرة لنهاية القرن العشرين بطرح قضية عاصفة وخطرة وهي إمكانيـــة استنســاخ البشر بعد نجاح التجارب على بعض الحيوانات متمثلاً أساساً فـــي النعجــة "دوللـــي" الشهيرة (١٥) ، والقردين اللذين أعلن علماء أمريكيون في أول مــارس عــام ١٩٩٧ عن استنساخهم من خلايا جينية (١٦) . وماذا عن هذا الاستنساخ؟ يرى البعض أنـــه أحد جوانب أو عمليات الهندسة الوراثية (١٧) التي عرفها العلم منذ ســتينيات القــرن العشرين وشاع أمرها وتطبيقاتها فـــي التســعينيات خاصـــة فـــي البــلاد المتقدمــة علمياً وتكنولوجياً . والاستنساخ في واقع الأمـــر هو طريقـــة مــن طــرق التكــاثر البدائية وهو شائع في بعض الكائنات الأولية وحيدة الخلية مثل البكتريـــا والأميبيـــا . وبصفة عامة يقصد به "الحصول على نسخة أو أكثر طبق الأصل من الأصل نفسه ، وبالمعنى البيولوجي فالاستنساخ يعني معالجة خلية جسمية من كائن معين كي تنقســـم وتتطور إلى نسخة مماثلة لنفس الكائن الحي الذي أُخذت منه" (١٨) .

ونظراً لما جلبت قصة دوللي وغيرها من عمليات الاستنساخ في عالم الحيـــوان من مخاوف ، تعالت الأصوات معلنة خشيتها من التطبيق على عالم البشر لمـــا فـــي ذلك من تأثيرات خطرة على آدمية الإنسان وتفرده والتي قد يصعـــب حتـــى تحديـــد

مداها أو ضبطها . ويُخشى كذلك أن يؤدي التوسع البحثي في هذا المجال إلى إنتاج حيوانات تحمل مورثات آدمية فيتم بذلك تخليق الحيوان الإنسان أو الإنسان الحيوان . وبهذا تضيع هوية الإنسان الحقيقية ويخبو جوهره الأصيل كمخلوق فريد .

ونظراً لخطورة الأمر ، وتعدد انعكاساته على البشر والحياة الإنسانية من النواحي الأخلاقية والسياسية والاجتماعية (١٩) ، وما قد يترتب عنه من تعقيدات ومشاكل جمة في تعامل الناس بعضهم مع بعض وفي نظرة الواحد للآخر ، انبرت الأقلام ، وعُقدت الندوات ، وتحدث العلماء ورجال الدين والقانون والمفكرون والفلاسفة عبر وسائل الأعلام المختلفة المقروءة والمرئية، عن وجهات نظرهم . ناصر بعضهم حرية البحث العلمي وعدم فرض وصايات عليه أو إصدار قوانين تحد من توسعه وطرق أفاق معرفية جديدة ، في حين خشي البعض الآخر من الفشل في ضبط حدود العلم وتأثيراته على البشرية جمعاء علاوة على كونه تحد للخالق عز وجل وتشبها به في القدرة على التخليق . هذا إلى جانب ما يحمل الاستنساخ البشري – على المدى القريب والبعيد – من قضايا إنسانية قد يصعب مواجهتها ، والتي قد تؤدي في نهاية الأمر إلى تدمير حضارة الإنسان وحكمة تواجده ، الأمر الذي دفع بقضية الاستنساخ ضمن جدول أعمال السياسات الاجتماعية للدول ، كما اقتضت أيضاً أن يحدد رجال الدين موقفهم منها ، وأن يبرر العلماء أهمية الاستمرار في أبحاثهم ومدى حاجة البشر إليها.

وفي هذا الإطار ، شكلت الحكومات المعنية لجاناً لدراسة القضية وأصدرت تقارير في هذا الشأن . ولقد أوصى التقرير الأمريكي مثلاً في أولى بنوده "أنه غير معقول أخلاقياً في هذا الوقت أن تقوم أية جهة ، سواء كانت قطاعاً خاصاً أو عاماً ،

وسواء عُنيت بالبحوث أو التطبيق ، بمحاولة تخليق طفل بواسطة تقنية نقل الخلية الجسمية النووية ، حيث أن تطبيق هذه التقنية غير مأمونة العواقب عند استخدامها على البشر" . وكنتيجة لهذه التوصية ، وما جاء في التقرير من إيضاحات أخرى سلبية ، أصدر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حظراً على الحكومة منح أية أموال للقيام بأبحاث تتعلق باستنساخ البشر . ولنشر ما جاء في هذا التقرير من حيثيات ، ولإعلام الناس به في كل مكان، أدخل نص التقرير بالكامل في شبكة الانترنيت (٢٠) . ومن الناحية الأخرى ، فقد أدان كلا من البابا ، رئيس الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان ، ومفتي الديار المصرية أيضاً الاستنساخ البشري باعتبارها عملاً مخالفاً للدين علاوة على أنه غير أخلاقي وغير إنساني البته . ومع ذلك، فإن كان الاستنساخ في النبات والحيوان قائماً وجارياً بقصد النفع للإنسان فلا قيد عليه ، ولا تحريم منه .

وختاماً لحديثنا عن مسألة الاستنساخ في هذا المقال ننقل للقارئ الرأي القائل أنه لا وجود لفردين تتطابق استجاباتهم وردود أفعالهم واختباراتهم وقدراتهم . وحتى ولو تمكن العلماء من استنساخ الشخصية والذاكرة والعقل والنفس ، فالناتج يكون جسما دون روح . فقد يكون استنساخ الأجساد ممكنا ولكن استنساخ الشخوص يبدو صعباً أن لم يكن محالاً في رأي بعض العلماء . وفي هذا الشأن يقول العالم روبرت شولر في مقال نشر له في صحيفة لوس انجيليس تايمز بعنوان "النفس الإنسانية ليست للاستنساخ" أن العلماء الذين يواصلون دون كلل سبر أغوار الإنسان الظاهرية والباطنية يسحرهم وجود بصمات خطة إلهية ، فأرواحنا لا يمكن أن تستنسخ لأنها فريدة من نوعها ، وان العلم لا يمكنه أبداً تجاوز الروح الإنسانية وإنها تظل خارج نطاق العلم (٢١) . وهنا تبرز قيمة الإنسان وتفرده وروحه وقوته . ولحديثنا بقية

في المقال التالي ، ولنقرأ سوياً الآن مقتطفاً عن قيمة الإنسان للشاعر والأديب الفرنسي "أندرية برتون " (١٨٩٦- ١٩٦٦) . يقول فيه :

"في جلبة الأسوارِ التي تنهارُ، بين أناشيدِ الفرحِ التي تتصاعدُ من المدائنِ التي تَمَ ترميمها ، في أغاني السيلِ الذي يجهرُ بالعودةِ الدائمةِ ، عودةِ الأشكال التي يتناولها التغييرُ باستمرارٍ ، على جناحِ العواطفِ الخفّاق، والأهواء التي تتداولُ الكائناتِ والأشياءَ قياماً وقعوداً فوق نيران القش التي تتشنّجِ فيها الحضارات ، وراءَ اختلاطِ اللُغاتِ والأخلاق ، أنا أُبصرُ الإنسان ، أُبصرُ ما يستمرُ منه صامداً لا يتزحزحُ في قلب الإعصارِ . لقد تملّص من إمرةِ الممكنات في الزمان والمكان ، فهو في الواقع محورُ هذا الإعصار بالذّاتِ ، إنه الوسيط الذي لا وسيط إلاّهُ" (٢٢) .

أيها الإنسان... من أنت ؟*

عجيب أمر هذا الإنسان ، مادة عضوية لاقيمة لها في ميزان الأشياء ، بل أنها مجرد شيء من الأشياء ، إلا أنها في لحظات العنفوان والغطرسة تعتقد إنها الأشياء كلها ولاشي غيرها .

وفي الحقيقة فإن هذه النقطة تشكل مأزق الإنسان ومعضلته الأزلية . فهو في نهاية المطاف ليس إلا مادة عضوية لاحول لها ولاقوة ، تعيش وتموت بحكم قضاء اللّه مثلها في ذلك مثل بقية الأشياء . ولكنه بالرغم من ذلك ، بالرغم من هذه الحقيقة الأزلية عبارة عن كائن يحسّ الخلود في داخله ويريد أن يحتوي العالم بل الوجود بأسره في ذاته .

الإنسان ، هذا الكائن المحدود الصغير الضعيف ، يمتلك روحاً ووجداناً غير محدود يبحث عن الخلود ويريد احتواء الوجود . والتناقض بين هذين القطبين اللذين يحكمان قانون الوجود الإنسان يسبب ألما وقلقا واضطرابا للنفس الإنسانية الساعية إلى الخلود واحتواء الكل ، والمحكومة بالفناء والحقارة بقوانين المادة .

وتترجم الذات الإنسانية هذا القلق وذلك الاضطراب إلى فن وأدب ، وإبداع إنساني بوجه عام ، تحاول الذات من خلاله تحقيق ما لايتحقق ومحاولة هزيمة الفناء والموت وحقارة المادة ذات المجال المحدود والزمن المحدود . يريد الإنسان السباحة في اللامحدود ، ولكنه في نهاية المطاف كائن محدود . يريد أن يكون ولكن الضرورة تحكم عليه بألا يكون . يتمرد الإنسان على كل ذلك فيبدع ، فالإبداع مرتبط دوما وأبداً بحالة التمرد الدائمة التي يعلنها الإنسان على محنة الوجود من حوله ، بل محنته في علاقته مع نفسه ومع الوجود من حوله .

أيها الإنسان إن قلبي معك ، فأنت صندوق المتناقضات ، عظيم وحقير في ذات الوقت، محدود ولا محدود ، صغير وكبير . كل ذلك في تلك الكتلة العضوية التي تسير وتحمل بين جوانحها روحا متمردة خلاّقة نسميها الإنسان .

* تركي الحمد ، كتاب "عن الإنسان أتحدث" دار المنتخب العربي – بيروت – ١٩٩٨ ص ص ٧٤ – ٧٥ .

obeikandl.com

أطروحة الإنسان الخيالي

"لقد تكاثرت توصيفات الإنسان وتعريفاته ، حتى كاد يحتاج إلى خيال يتخيل به نفسه ومحيطه المعرفي وفضاءه الحيوي . إلا أن الخيال ، وهو قوة العقل في تصوّر كل شيء ، وربط الأشياء ببعضها ، واستخراج المعقول من اللامعقول أو العكس ، لم يُقدّم فلسفياً بوصفه المميز الأدق للإنسان في كل عصر . فهذا المستحدث من جماد في فلسفة الطبيعة ، ومن نقود في فلسفة الجوع أو الاستهلاك ، ومن روح في فلسفة الموت ودياناتها ، إنما هو مُنْتج خيالي ، يستَحدث لنفسه ما يشاءُ من خَيلات تناسبُ مصالحه ورغباته وحاجاته ، وتواكبُ الأحداث التاريخية -- المعرفية لهذا الآكل – العاقل ، وغير العاقل ، في آن . فالإنسان ، عندنا ، حيّ يستَحدثُ بخياله المعرفي ما يشاء ، فهو بهذا المعنى مُحْدِثٌ ، مُنْتِج أحداث ، صانع مرآويْة (بانوراما) أو مُنظاريّة تمكنه دوماً من الذهاب إلى اللامتناهي ، بقوة خياله العقلي اللامتناهي أيضاً ".

في كل حال ، الإنسان الخيالي هو اللاعب بعقله أو بروحه ، بهذا الخفيّ الشاطر" ، و"المنشطر" في آن بين ما يرى وما لا يرى ، مايفعل ومالايفعل ، ما يأكل وما لا يأكل ، مايرغب فيه ومايرغب عنه .

"الإنسان الخيالي هو إنسان نوعي وتنوعي معاً : فهو النوع الوحيد بين كائنات الأرض الذي يدّعي اصطناع نفسه بنفسه ، لنفسه ولسواه في حال التبادل ؛ وهو تنوعي في اصطناع نفسه من خيال ، وفي تبادلها مع آخرين بخيال ، تبادلاً مخيولاً ، مُرمّزاً ومُرقماً ، محسوباً ولا محسوباً ، معقولاً ولا معقولاً ... مع آخرين ، لاعبين بخيالهم لاعبين أكثر خيالاً ، أقل خيالاً ، أندداداً في خيال ، يُفترض أنه مشترك . والمسافة الراهنة بين حضارات النوع البشري هي تباينات ، فوارق في قوة الخيال العقلي . فالأكثر تقدماً ، الآن ، هم الأكثر خيالاً الأكثر اختراقاً بالخيال للمجهور واللامعقول ، الذي يقبلونه بالصناعة إلى معلوم ومعقول ، مُتناسين مع حاجات الخائل أو المُتخيّل والآخر الذي يقلّ خيالاً ، أو ينقصه الخيال ، هو المتخلف ، المُتركّح عن منصّه إطلاق الخيال العقلي المعاصر" .

* مقتطفات من استهلال كتاب "علم الاجتماع وفلسفة الخيال" ، خليل أحمد خليل ، دار الفكر العربي ، بيروت ١٩٩٨ ص ص ٥ – ٦ .

الإحالات والحواشي :

(١) بيتر فارب . بنو الإنسان . (ترجمة زهير الكرمي) . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، عدد رقم عام ١٩٨٣ .

(٢) الموسوعة الفلسفية العربية . معهد الإنماء العربي ، بيروت الجزء الأول ١٩٨٦ ، ص ١٣٣ .

(٣) محمد عبد الرحيم مرحبا، فلسفة ما قبل الفلسفة، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت، ١٩٩٤، ص ٣٢٦ .

(٤)
James Trefil. Are we Unique? John Wiley Sons Inc. : New Yourk. 1997. P.61.

(٥) عن العقل كتب حسين مؤنس في آخر كتاب حرره قبل وفاته مايلي :
"إن **اللّه** منح الإنسان العقل ، وهو نعمة **اللّه** الكبرى ، وبالعقل يصل الإنسان إلى **اللّه** سبحانه وتعالى وإلى الإيمان الصحيح به ، وكل تقدم للإنسان مرهون باستخدامه لعقله والعقل المتفتح المتحرك هو الطريقة إلي الرخاء والسعادة ، والعقل الجامد الساكن ينتهي بالإنسان حتماً إلي السكون والموت"
أنظر المرجع التالي : حسين مؤنس . تاريخ موجز للفكر العربي . دار الرشاد : القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص٨٩ .
وفي مقال بعنوان "رجل الفكر ، هل يحتكر تمثيل العقل" يتساءل علي حرب هل رحلة العقل ومغامراته تتجلى فقط في أعمال الفلاسفة ونتاجات العلماء من دون سواهم؟ وفي جوابه على ذلك يعود إلى الفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت" Réne Des Cartes الذي يعتبر أن العقل أعدل الأشياء قسمة بين

النـــاس ، بمعنى أنه لا فرق بين إنسان وآخر، من حيث الطاقة العقلية ، وإنمـــا الفرق هو طريقة استخدام العقل ، بل أن ديكارت يتمنى لو كان له مـــا لبعـــض عامة الناس من سرعة البديهة وقوة المخيلة أو سعة الذاكرة . (مجلة العربـــي ، عدد نوفمبر ١٩٩٨ ، ص ١٢٠) .

(٦) انظر المراجع التالية :
الموسوعـــة الفلسفيـــة ، إشراف روزنتال بوديـــن (ترجمـــة ســـمير كـــرم ، دار الطليعة ، بيروت ، ص ١٩) ، موســـوعة لالانـــد الفلســـفية . منشـــورات عويدات ، بيروت ١٩٩٦، والموسوعة الفلسفية العربيـــة ، مرجـــع رقـــم ٢ ، ص ١٣١ .

(٧) تذكر باسمة الكيال أن أحد العلماء العرب وهو الدكتور الجراح محمـــد كـــامل حسين قد تعرض لهذه الناحية فقال : "لقد أجريت عمليات قطعت فيهـــا الصلـــة التشريحية تماماً بين الجزء الجبهي من المخ كله وبين بقية الخ ، ولـــم يتغـــير تفكير الناس ، ولم يفقدوا ذاكرتهم أو عواطفهم ، كأن الصلة بين الجزء الجبهي والجسم صلة لا علاقة لها ولم تعلم بعد" أنظر باسمة الكيال : أصـــل الإنســـان وسر الوجود، دار مكتبة الهلال ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٢١-٢٢ .

(٨) الموسوعة الفلسفية العربية ص ١٣٢.

(٩) James Trefil مرجع رقم٢ ، ص ص ٥٧-٦٠ .

(١٠) يُذكر أن الأفيال تدرك دنو أجلها وتتوجه إلى المكان الذي تتجمع فيـــه الأفيـــال المحتضرة حتى موتها .

(١١) أنظر مقالها بعنوان "هذا الإنسان" ، جريدة الأهرام المصرية أيام ١٩٩٨/٢/٢٦ ، ومقالات أخرى حول هذا الموضوع أيام ١٢ ، ١٣ يناير ١٩٩٧ .

(١٢) محمد سعيد رمضان البوطي . منهج الحضارة الإنسانية في القرآن . دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٤٦ ، قدم البوطي عدة آيات قرآنية ليستشهد بها على طبيعة هوية الإنسان القرآنية .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(١٤) المرجع السابق ، ص ص ٥٠-٥١ .

(١٥) تكلف استنساخ النعجة دوللي ٧٥ ألف دولار أمريكي ، وقام بعملية الاستنساخ معهد روزلين الاسكتلندي للبحوث الأساسية و الاستراتيجية الخاصة بإنتاج حيوانات المزرعة . وتعرف تقنية إنتاج النعجة دوللي علمياً بتقنية النقل النووي للخلايا ، بمعنى أنه إذا نزعنا النواة من خلية أي عضو من أعضاء الكائن الحي ووضعناه في بويضة حية غير مخصبة منزوعة النواة مأخوذة من كائن آخر مماثل فإننا نكون بذلك قد كونا الجنين الأولي بغير التكاثر الجنسي أو التزاوجي، أي بدون اتحاد حيوان منوي من كبش مع بويضة من نعجة . (نقلاً عن "الاستنساخ قنبلة العصر" تأليف صبري الدمرداش ، شركة دار الفكر الحديث ، الكويت ١٩٩٧) . لمزيد من التفاصيل أنظر أيضاً كتاب "الاستنساخ والإنجاب" كارم السيد غنيم ، دار الفكر العربي، ١٩٩٨ . ومن المراجع الأجنبية الحديثة طالع كتاب :

Clones and Clones : Facts and Fantacies About Human cloning, W.W. Morton Company : New York, 1998.

obeikandl.com

(١٦) تختلف التقنية المطبقة في حالة دوللي عن التقنية المستخدمة في حالة القردين والتي تعرف "بتقنية الحقن المجهري للخلايا" التي طبقها العالمان الأمريكيان في مركز بحوث أوريجون بالولايات المتحدة الأمريكية . والأساس النظري لهذه التقنية هو استنساخ أجنة بشرية (أنظر المرجع المذكور رقم ١٥ : ص ص ٤٥-٤٦) .

(١٧) تعني الهندسة الوراثية التدخل في البنية الوراثية في نواة الخلية الحية إما بالحذف أو بالإضافة أو بإعادة الترتيب أو بالبرمج . وعادة ما تطبق هذه الطرق على الحيوانات مثل البقر ليدر لبناً أكثر وفق مواصفات معينة ، كما تطبق أيضاً على الخضار والفواكه لتحسين إنتاجها وقيمتها الغذائية . ويعتقد البعض أن الهندسة الوراثية هي خريطة لطريق وجود الإنسان إذ أنها توضح لنا من نحن ، وأيضاً من يمكنا أن نكون .
(أنظر مجلة سطور ، القاهرة ، عدد مايو ١٩٩٨، ص٧١) .

(١٨) أنظر المرجع المذكور في حاشية ١٤، ص ٢٤ ، أنظر أيضاً مقال بعنوان "الاستنساخ مرة أخرى" . مجلة العربي الكويت، عدد أكتوبر ١٩٩٧ ، ص ١١٦ .

(١٩) أنظر كتاب الاستنساخ والإنجاب : المذكور في رقم ١٥، الفصل الخامس .

(٢٠) يجد القارئ مزيداً من التفاصيل حول هذا التقرير في المقال التالي :
Harold Shapiro. Ethical and Policy Issues of Human Cloning. Science, vol. 277 ,Jul,1997,P.195-199.

(٢١) نشرت مجلة سطور هذا المقال في عدد مايو ، ١٩٩٨ ، ص ٧١ .

(٢٢) نقلاً عن مختارات من الشعر الفرنسي : من بودلير إلى بريفير (ترجمـــة روّاد طربية) المسار للنشر ، بيروت ، ١٩٩٤ .

obeikandl.com